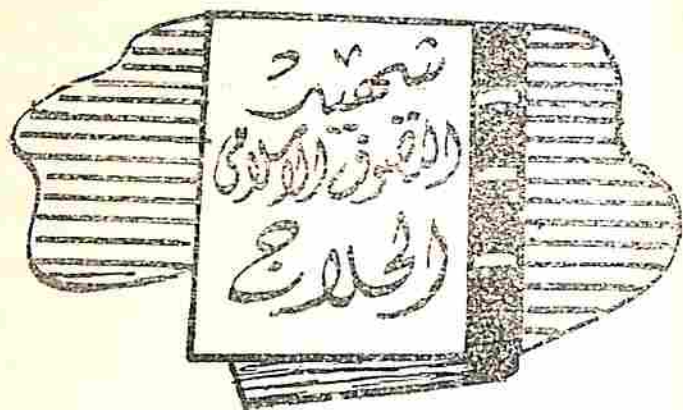




(٥)

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقي سرور

الحلاج في بغداد :

وخفق قلب بغداد للنبا العظيم ،
لقد جاء الحلاج إليها تسبقه عواصف
مرعدة مذهلة ، من الدعاوى العريضة
المتناقضة ، جاء إليها بعد أن طوف
بالأرض ، فلأ آفاقها دوبا ، وأسمع
آذانها عجا : فقد ترك الحلاج في
كل بقعة رن فيها خطوه ، ما يختلف
فيه الناس ، وما يتخاصمون في أمره
فأراى الناس من قبل رجلا له
سمته وشخصيته وقواه وروحانيته ،
رجلا يتحدى بداية الإنسانية كافة ،
فيطرق أبواب العالم شرقا وغربا ،

مباشرا وداعيا إلى الله سبحانه ، دعوة
أساسها وروحها حب الله ، حبا تذوب
فيه شهوات الدنيا ، وينطفئ لهيبها ،
وتتضاؤل فيه أهواؤها وسحرها ،
فإذ بكل ما فيها قبض الريح ، وإذ
تاجها ونعيمها وفوزها الأكبر في
الاتصال بواجب الوجود ومبدعة ،
اتصالا ينير الروح ، ويشغل القلب ،
ويوقظ الحس ، فإذا بالإنسان في تجل
مشرق عظيم ، قوة ربانية تملك أسرار
الكون ، كما تملك مدارج الصعود ،
إلى حياة النور والخلود ، وتملك فوق
منا وذاك القدرة على تحقيق رسالة
الإنسان الكامل ، خليفة الله الذي

أصطفى منه كليمه ، وخليفه ، وحييه
وفي خلال هذه الدعوة الروحية
الربانية ، لا يفنى الحلاج عن دنياه ،
كما فنى غيره من الصوفية ، ولا تذهله
الاشرافات والمعارج والمحبة الربانية .
عن حقيقة الحياة الأرضية ، بل هو
يقرع سمع الدنيا بدعوته الإصلاحية
عند المفسدين في الأرض من الملوك
والأمراء ، ومن يمشی في مواكبهم
من محترفي الدين والدنيا ، فيطالب
بمخالفة مؤمنته مهتدية تحمل الناس على
الصراطة المستقيم ، وحكومة قرآنية
تشعر بواجبها حيال الله ، شعور ما
بواجبها حيال الإنسان .

و ضد المفسدين في الروح والفكر
والقلب ، من علماء الكلام والمنطق
والشوحيد ، ومحترفي الجدل الديني ،
والحوار اللفظي ، الذين مزقوا دينهم
شيعا ، وأحاله عوجا ، بعد أن كان
شرعة محكمة لا تعرف جدلا وحوارا ،
ولما تعرف عملا وإيمانا .

وتمتزع شخصية الحلاج بجهور
رسائله . فيؤثر كلاهما في الآخر ،
تأثيرا هو سر ما يضطرب فيه الناس
من أمره . وما يتجادلون حيال سيرته

وحقيقة دعوته .

كان الحلاج متوهج النفس ،
مشتمل الحس ، جياش القلب ، ناثر
الوجدان . رهيف الملاحظة ، يملك
قوى خارقة ، من المغناطيسية الروحية
التي تؤثر في كل شيء . يتصل به ، أو
يدنو منه .

وكان فوق هذا . واسع الخيال ،
ساحر البيان ، رائع التصوير ، صادق
الشعور ، اخلاء الزهد ، وحلاه
النسك ، وحلاه الحب ، اكتسبه
طاعاته ومحامداته ، رر ما مشرقا مشعا
متوددا عطوفا ، تتدفق منه تيارات
ساحرة محببة ، تدنيه من كل قلب ،
وتمزجه بكل عاطفة .

يقول المستشرق د نيكلسون ،
- امتاز الحلاج بأنه عاش في صوفيته
تماما ، عاش في كل لحظة قاله . وفي
كل خاطر من به حتى لقب بمسيح
الإسلام . -

و يقول العلامة الفرنسي د ماسنيون ،
- إنه حتى ما قال ، وقال ما حتى . وعند
مناقارن بين محبي الدين والحلاج قال :
- أما اعتقد أن ابن عربي . معرفته
أكبر من وعنه وابن عربي . الحلاج

أكبر من معرفته .

كان الحلاج روحا عظيما ، بل
لعله أكبر روح في عالم التصوف ، يقول
علي بن أنجب الساعى : « لقد بلغ من
صفاء روحه أنه كان يستشف الغيب
من متر رقيق ، ولقد عزيت إليه
نبؤات صادقة ، استرعت أنظار الدنيا ،
وتلك الصفات التي اتسم بها
الحلاج ، وطبعت تاريخه ، وصاغت
دعوته ، صفات فيها اغراء ، وفيها
استهواء ، حتى لقد فتن بسحر
الحلاج الروحي قوم ملأوا الدنيا
حوله بالأساطير الملوثة المبدعة ،
ودقوا طبول الدعوة العالية ،
لخوارقه المذهلة ، حتى جعلوه علما
بالغيب ، قادرا على احياء الموتى ،
مسخرًا عناصر الطبيعة
وجوارحها .

وهي صفات أيضا تترك حوله
حقدا غليظا ، وحسدا مسموما ،
وجحما مشتعلًا من البغضاء ، فتصدى
للحلاج قوم ، جمعوا كل مافي الدنيا
من فجور وفسرت ، رأوا الحلاج وشروقه
وقد فؤا به وجهم ، وسدوا تاريخه
بإرصادهم ، اتحدوا وحدهم ، وبغضاهم

نفوسهم .

وبتلك الحالة ، وعلى قرع تلك
الطبول ، دخل الحلاج بغداد ،
وكانت بغداد في عصره هي الدنيا كما
يقول رجال التاريخ :

« كان يحمل إليها خراج الأرض
فتنبض جنباتها بالترف ، وما يدفع
إليه الترف ، من شهوات
وجور .

وكان يلتقي فيها تراث الفكر
العالمى ، بموارث الحضارة الإسلامية
فتموج آفاقها بكل لون من ألوان
الفكر والمعرفة .

كان فيها الماديون على اختلاف
منهجهم ومذهبهم ، من الفلاسفة
العقليين ، إلى المتمردين الملاحدين
وكان فيها الروحانيون على اختلاف
أذواقهم ، من العباد المتصوفين ، إلى
المنجمين والمتألهين ، والمتصلين
بالأرواح والشياطين .

وتحولت مساجد بغداد ومدارسها
وندهاتها إلى ساحات للحرب
الفكرية ، بين فرق وألوان ومذاهب
لا حصر لها :

وإلى ساحة بغداد ، بل إلى ساحات

الصراع المشبوب الأوار ؛ دافع
الحلاج ؛ تحيط به حاشيته ؛ وتسبقه
دعوته :

واهتزت عمام العلماء في أروقتهم
الفكرية ، وتطالعت حلقات الصوفية
وأرهفت سمعها ، وترددت همسات
في قصر الخسلافة ؛ وتقاطعت
الخواير ، الأحاديث الملونة ، عن
الرجل المبارك ، صانع المعجزة
والكرامة ..

ومن ثم ، رأينا التاريخ يحدثنا
عن شيوخ كبار من البيئات الصوفية
والفقهية ، وعن أئمة من أساتذة
الكلام والتوحيد والفلسفة ، وهم
يسعون إلى الحلاج ويلتمسون لقاءه ،
والتحدث إليه ، وفي لهواتهم جدل
عنيف ، وفي عقولهم تحد غليظ ، وفي
قلوبهم تلهف حار ، يحاول أن يتعمق
فهم رسالة الداعية الذي تحيط به
الترعود والبروق .

وتعددت الاجتماعات ، وتوالت
الندوات ، وطال الجدل والحوار ،
والتهبت الكلمات ، واختصمت العقول
وتفرقت القلوب ، وأصبحت
الخصومة سافرة ، فقد جاء الحلاج

إلى بغداد يحمل منهجا ورسالة ، ويندفع
في عنف إلى هدف وغاية .

ولم تكن البيئات العلمية في بغداد
على استعداد عقلي لأن تسلم الحلاج
بمنهجه الصوفي ، بل سكتة ومواجهة
وأذواقه ، ولم تكن المجتمعات الصوفية
في بغداد على استعداد نفسي بؤهلها
لأن تسهم مع الحلاج في دعوته
الإصلاحية ؛ وأهدافه الثورية .
المنهج الحلاجي .

ومن ثم حفظ لنا تاريخ الحلاج
رغم غموضه وتمزقه ، مناظرات
وجدلات خاض الحلاج غمارها ضد
مفكرى عصره وعلماؤه ومتصوفيه
كما حفظ لنا تراثا حلاجيا يشكل منهجا
فكريا متكاملا متناسقا ، له طابعه
العلمي وخصائصه الروحية .

وهذا المنهج الحلاجي الثقافي ،
يتسم في كل جزئية من جزئياته بذلك
الوجد الصوفي ، والحب الإلهي ،
الذي استأثر بعقل الحلاج وقلبه
وروحه ، استأثرا ملحا عنيفا .

الحلاج وعلساء الكلام

وعلى ضوء هذا المنهج نستطيع
أن نتفهم محاولات الحلاج مع علماء

الكلام . في الأمر والإرادة والمشية
الإلهية ، وفي أفعال العباد ، وتعلقها
بالقضاء والقدر .

فالحلاج يعتمد على التجربة
الصوفية المباشرة ، أدخل مسألة الصلة
بين اللطاف الإلهي والقضاء والقدر .
تلك المشكلة التي ترجع إلى النزاع
بين الخير الذي يأمر به الله - الأمر -
وبين الشر الذي يتنبأ بوقوعه
- الإرادة - ويرضى الحلاج بهذا
النزاع بدلا من أن يخفيه . فهو يعلم
أن لا حيلة للعالم للوصول إلى الماهية
الإلهية ، بل إن الحب هو الطريق
إليها .

إذ ليست المعرفة الفكرية للقضاء
الإلهي هي التي تقربنا من الله ، بل
إنما هو خضوع قلب الأمر الإلهي
في كل لحظة ، لأن الأمر غير مخلوق
بيننا الإرادة مخلوقة .

وهكذا يضع الحلاج حدا
لنقاش متكلمي عصره حول هاتين
الكلمتين - الأمر عين الجمع - والإرادة
عين العلم - فكل قلب إذن يشغله
السمي وراء الجزاء ، عن حرمة الأمر ،

(١) مقدمة الطوأمين للماسنيون .

إن هو إلا مرتزق ، وليس بخادم
حق الله .

وقد تبنت « السالمية » هذه
التفرقة ونمتها مستشهدة على ذلك
بموضوع - طاسين الأزل - للحلاج ،
فلقد كان أمر الله في دعوته لأبليس
لأن يسجد لأدم أمر أشكليا ، ولم
تكن تلك إرادته ، وإلا لسجد
أبليس ، لأن كل ما يريد الله واقع .
ذلك هو موضوع البلاء الذي
لا مفر منه الإنسان كي يكون
قديسا (١) .

ولهذا يوصي الحلاج المريد بأن
يكون مع الحق بحكم ما أوجب ،
ويقول : « من لم يؤمن بالقدر فقد
كفر ، ومن أحال المعاصي على الله
فقد فجر » .

وأسماء الله سبحانه عند الحلاج
من حيث الإدراك أسمى . ومن
حيث الحق حقيقة ،

وكان يقول « لا يجوز لمن يريد
غير الله ، أو يذكر غير الله ، أن
يقول عرفت الله ، ومن عبد الله
لنفسه فإنما يعبد نفسه ، ومن » .

استصحب كل نسك في الدنيا
والآخرة ، وهو جاهل لا يقرب
من الله أبداً ،

والصلاة عند الخلاج هي المعراج
الذى يصل النفس مباشرة بالله ،
وقراءة القرآن عنده إنما تكون
يا حساس ومشاهدة ، فكأن الله
مبجانه يتلو على لسان القارىء ؛
أو كأن القارىء يستمع إلى الله
سبحانه . ومن هنا نشأت حالات
الوجد العظمى التى عرف بها الخلاج
هذه السماع

والكون عند الخلاج مادي
وروحى كالإنسان ، والعبادة تخلق
وعياً كونياً .

والإيمان عنده : قول ، وتصديق ،
وعمل ، والولى هو الدليل الحى
على الله .

وبذلك وضع الخلاج أول مذهب
كلامى فلسفى للصوفية ، مما ستعرض
له عرضاً شاملاً فى الفصول القادمة
إن شاء الله ، وعن الخلاج تلقت
المدرسة : السالمية : فلسفتها الكلامية
التي تراها عالمية الصوفية فى تفسير السلى .
الخلاج وتفسير القرآن ،

والمنهج الخلاجى الذى ذكرناه
يتجلى بصورة متألثة فى تفسيره
للقرآن ، وتفهمه لآيه .

وللخلاج تفسيرات تناولت آيات
الذكر الحكيم بحلة وتفصيلاً وهي
تفسيرات أصحابها ما أصاب تاريخ
الخلاج كله ، من تمزيق وتبديد ،
وبقيت من هذه التفسيرات لمع ترشد
إلى المنهج وتوصى إلى الفكرة .

وأبو عبد الرحمن السلمى ، يدرج
فى تفسيره الصوفى حول نظرات
الخلاج فى التفسير . كما حفظ لنا
العلامة « روزبهان البقلى » فى تفسيره
- عرائس البيان - شذرات من تفسير
الخلاج . نفتبس منها نماذج لهذا اللون
من التفسير والتفكير .

يقول الخلاج فى تفسيره لقوله
تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول
وأولى الأمر منكم » .

- العبد مبتلى بالأمر والنهى ،
ولله فى قلبه أسرار تخطر دائماً فكماً
خطر بخاطر ، عرضه على الكتاب
فهو طاعة الله ؛ فإن وجبت له شقاء ؛
وإلا عرضه على السنة ؛ وهى طاعة
الرسول ؛ فإن وجبت له شقاء ؛ وإلا

عرضه على سيرة السلف الصالحين ،
وهو طاعة أولى الأمر ، .

ويقول في تفسير قوله تعالى :
«ألمست بربكم» . قالوا بلى ، حينما مآل
الأرواح في عالم النذر :

«... لا يعلم أحد من الملائكة
المقربين ؛ لماذا أظهر الحق الخلق ،
وكيف الإبتداء والانهاء ، إذا لا لسن
ما نطقنا . والأعين ما أبصرت ،
والأذن ما سمعت ؛ كيف أجاب من
هو عن الحقائق غائب ؛ وإليه آيب .
في قوله - ألمست بربكم - فهو المخاطب
والجيب ... قالوا : بلى ؟ ، القابل
عنكم سواء كنتم ؛ والجيب عنكم غيركم ،
فمستقطم أنتم أو بقى من لا يزل ، كما
لم يزل .

ويقول في تفسير قوله تعالى :
«إن الله يشتري من المؤمنين أنفسهم»
- نفوس المؤمنين عالية لا تباع
ولا تشتري ولا تذلل فلا يملكها سواه
ويقول في تفسير قوله تعالى :
«فذلکم الله ربکم الحق» - الحق هو
المقصود بالعبادات المستمرة إليه
بالطاعات . لا يشهد غيره ؛ ولا
يدرك سواه .

قال أبو عبد الرحمن السلمي :
«سئل الحسين بن منصور ، من هو
الحق الذي تشيرون إليه . قال :

معل الأنام ، ولا يعقل ؛
وفي تفسير قوله تعالى : «وجعلنا
بعضكم لبعض فتنه» : - الفتنه لعامة الناس .

ثم يقول : أبدى الله ألا كوان
كلها بقوله (كن) أهانة لها وتصغيرا
ليعرف الخلق إهانتها ، فلا يركنوا
إليها ؛ ويرجعون إلى مبدئها ومشتقها
فاشتغل الخلق بزينة الكون فتركهم
منه ، واختار من خواصه خصوصا
اعتقدهم من رق الكون ، فأحييهم به
فلم يجعل للعمل عليهم سبيلا ، ولا
للأنار فيهم طريقا .

ويقول في تفسير قوله تعالى :
«وهو معكم أينما كنتم» -
ما فارق ألا كوان الحق ولا قارنها ؛
كيف يفارقها وهو موجودها وحافظها
وكيف يقارن الحدث بالقدم ، قوام
الكل ؛ وهو بائن عن الكل .
وفي شرح قوله تعالى «وما يكون
من نجوى ثلاثة إلا هو رابعم» :
ولا خمسة إلا هو سادسهم ، قال :

- هو معهم علما وحكما ؛ لانفسا
وذاتا - .

وقال في شرح قوله تعالى :
« صوركم فأحسن صوركم » . . .
أحسن الصور ، صورة اعتقت من ذل
كن . . ؟ وتولى الحق تصويرها بيده ؛
ونفخ فيها من روحه ؛ وألبسها
شواهد البعث ، وجلاها بالتعليم ؛
وأسجد لها الملائكة المقربين ،
وأسكنها في مجاورته ، وزين باطنها
بالمعرفة وظاهرها بفنون الخدمة ،
وخلق آدم على صورته أى صورته
التي صورته عليها ، فأحسن صورته -
ويقول في شرح قوله تعالى :
« فلا أقسم بما تبصرون وما لا
تبصرون » ، بما تبصرون . أى ما أظهر
الله تعالى : الملائكة ، والقلم ، والروح
واللوح ، وما لا تبصرون ما اختزن
من خلقه الذي لم يجر القلم به ، ولم
يشعر الملائكة بذلك . وما أظهر

الله الخلق من صفاته ، وأراهم من
صنوعته ، وأبدى لهم من علمه في
جنب ما اختزن عنهم ؛ كذرة في
جميع الدنيا والآخرة ، ولو أظهر
الله تعالى من حقائق ما اختزن ؛
لذاب الخلق عن آخرهم فضلا عن
حملها

والخلاص يرى أن في القرآن ،
علم كل شيء ، وعلم القرآن في
الأحرف التي في أوائل السور .
ويقول : إن كل هذه العلوم
القرآنية . قد أحاط بها رسول
الله صلوات الله وسلامه عليه ، وهي
للعارفين بحكم الميراث الحمدي ،
وهي سر الحكمة والجلال الذي
يشرق في أقوال العارفين من
الصوفية . .

البحث مستمر

طه عبد الباقي سرور

* * *